معنى الإنسان والآلة

بقلم عبد الحبيب حسن

نحن الان بحاجة الى ثورة تشبه الثورة السقراطية الى حد بعيد ... فاذا كنا نعيش في عصر تقدم العلم فيه تقدما هائلا ، ولم يكتف الانسان بالارض بل تجاوزها الى الفضاء ، هذا الفضاء الذي كان البحث فيه وقفا على الفكر البشري وحده بخيالاته واحلامه عن عوالم السماء ، فان الانسان بسبيله الى غزو هذا الفضاء ، ليس بفكره وخيالاته كما كان الشأن دائما ، بل بجسمه ايضا .. وان كان سقراط في القديم قد احدث ثورة في الفكر البشري بأن انزل الفلسفة من السماء الى الارض ـ فقد كان الفلاسفة الطبيعيون الاوائل يبحثون في مادة الكون من اي عنصر هي : هل من ماء او تراب او هواء او نار او الاربعة جميعا ؟ ويجهدون انفسهم في معرفة الكون وجوهره هل هي الذرات او النسب والعلاقات الكائنة بين الاشياء وهل هي مادة واحدة ازلية ، وكل تغير نشهده في الحياة وهم ام ان سنة الحياة والكون التطور والنشوء والتغير ـ بحثوا كل هذا وغفلوا عن انفسهم ، عن الانسان فاتى سقراط ووجه الفكر البشري نحو معرفة الانسان ، من هنا كانت الحكمة التي استرشد بها « أعرف نفسك » وما زالت هذه الدعوة الى معرفة معنى الانسان تتحدى الانسانية حتى في عصر الفضاء،وخير ما يفعله المفكرون في هذا العصر،عصر الجبروت العلمي ان يتأملوا معنى الانسان وكرامة الوجود الانساني لمقابلة هذا التحدي الذي يطرحه امامنا التقدم التكنولوجي والآلي .

فلو ان التقدم الفني والهندسي استطاع ان يخلق لنا آلة بشرية تقوم بوظائف الانسان كما هو الشأن الان في الالآت الالكترونية الحاسبة التي تقوم بأشد العمليات الحسابية تعقيدا او طولا وتستطيع ان تترجم من لغة الى لغة وان تؤلف الالحان الموسيقية ـ لو حدث هذا فماذا يكون معنى الانسان وما معيار التفرقة بينه وبين الالة ؟ ما معنى العقل والوعي والإنسان والالة ؟ تلك هي المشكلة ـ مشكلة الفرق بين الانسان والالة ، بين الحياة واللاحياة . كانت تلك المشكلة موضع دراسات متعددة في العصر الحديث تناولها المفكرون كما كان الشأن في مشكلة العلاقات بين الجسم والعقل التي كانت موضع تأملات الفكر القديم بأجمعه ، واول نظرية توضح هذه العلاقة هي النظرية المصرية القديمة القائلة بان للانسان جسما فانيا وروحين باقيتين ازليتين احداهما الروح الشبيهة بالانسان وهو الكا والروح الاخر هو البا ، والحضارة المصرية انعكاس لهذه العقيدة القديمة ، والنظريات متعددة في هذا الموضوع . ولعل اهمها بالنسبة لموضوعنا نظرية ديكارت ، ابي الفلسفة الحديثة ، الذي قرر ان الكائن الحي ما هو الا آلة معقدة الصنع والحيوان الة ، وكذلك الانسان الة الا ان هذه الآلة تمتاز بالعقل او الوعي او الفكر ، والتفسير الالي للحياة تفسير قديم منذ ديمقريطس والابيقوريين والرواقيين ... وكثير من العلماء والمهندسين والفلاسفة وخاصة في القرن التاسع عشر والعشرين يرون ان الكائنات الحية آلات كيميائية او ميكانيكية او الات بيولوجية ولا يستثنى من ذلك الانسان ـ وهذا تيار عام في الفكر الحديث لا يعنينا ان نذكر اعلامه والمدافعين عنه بل الذي يعنينا ان نتناول معنى الانسان ونركز على ناحية واحدة فقط من هذا المعنى وهي مشكلة التفرقة بين الانسان والالة .

وقد تناول هذا الموضوع مؤخرا في « المجلة البريطانية لفلسفة العلم » الاستاذان كاب وميلز (١) تناول الاول موضوع الالة الحية وغير الحية ، وتناول الثاني الفرق بين الانسان والالة . اما الاستاذ كاب فقد تناول مشكلة التفرقة بين الكائن الحي والالة من حيث المظهر والاداء والحركة والتكوين الالي وواضح الفروق الاساسية بين التكوين الالي وبين الكائنات الحية بشكل حاسم وانتهى الى ان الحقائق العلمية الحديثة تنقض الفرض القائل بان سلوك الكائنات الحية سلوك آلي اتوماتي مائة في المائة ولا ينطبق هذا فقط على الاحياء العليا ذات الادراك والوعي بل انه ينطبق على الاحياء جميعا حتى النبات .

والمشكلة هينة حين نسأل ما الفرق بين الانسان والالة ؟؟ فنحن بمجرد النظر نستطيع ان نميز بينهما فليس للالة آذان او عيون او انف وسطح من الجلد ، وحتى لو كسوناها شكلا خارجيا يشبه الانسان تمام الشبه فليس من العسير علينا ان نميز حين نقترب منها انها ليست انسانا، فهناك اجهزة وصمامات وعجلات وشمع على السطح يشبه الجلد ، وان مهندسا قد صنعها في وقت معين واستخدم في صنعها الات واجهزة ... وما شابه ذلك وليس وجودها عارضا بل شيء فكر فيه انسان وتخيله قبل ان يصنعه وهو الذي

(1) R.O. Kapp, «Living and lifeless machines», The British Journal for the Philosophy of Science,
Vol. 5 August 1954, PP. 91 - 103
T.R. Miles, «on the difference between men and Machines» the same Journal , Vol. 7, February 1957, PP. 277 - 292.

يديرها وحتى لو فرضناها آلة تستجيب بشكل تلقائي اتوماتي الان مظهرحركتها سيكون « متخشبا » اذ «للحياة» مظهرها الخاص الذي لن يفوتنا ان نلمحه .

ولكن ماذا يكون الامر لو ذهبنا بمشكلتنا هذه الى ما هو ابعد من ذلك . وافترضنا انه في الامكان صنع الة بشرية بمعنى الكلمة اي تستجيب نفس الاستجابات التي نتوقعها من الشخص العادي ، الة من لحم ودم ، الة يمكن لعلماء النفس ان يقبسوا ذكاءها واطباء الامراض العقلية ان يدرسوا مرضها ، آلة تكشف عن حنان حين نعطف عليها وتفصح عن غضب حين نحاول خداعها ، وتظهر علامات الرضا والاعجاب حين نواجهها بمنظر غروب الشمس حين الاصيل ، ان نتلو على مسامعها قصيدة شعر جميلة ، وفي كلمة ، كائن تتجلى منه نفس الاستجابات التي نتوقعها من شخص عادي في المواقف التي نتعامل معه فيها ، ولنشر الى هذا الكائن باسم يميزه وهو « الكائن البشري الالي » Homo Mechanioma كما يقول ميلز .

تلك هي المشكلة كما يصورها ميلز ولنعرضها معتمدين على بحثه كل الاعتماد لنرى معه ما هو المعيار الذي سيجعل منه مقياسا دقيقا للتفرقة بين الالة والانسان بعد ان تعقدت الصورة على النحو الذي اسلفنا .

ولا يهمنا الان من حيث التعرض لمشكلتنا ان كان هذا الكائن البشري الالي ممكن الصنع ام لا ، ولكننا نفترض فقط من الناحية المنطقية والتصويرية انه قد يكون ممكن الصنع ، اذ ليس هناك حدود لما يمكن ان تصنعه الهندسة الحديثة . . ومثل هذا الكائن الخيالي وقد كان حتى الان موضوعا لتخيلات القصاص والروائيين وليس موضوعا للمحاولات العلمية ، ولا يعنينا ان كان هذا مستحيلا او ممكنا ، ولكن الذي يعنينا فقط هو ان نعرف كيف نفهم مفاهيم مثل العقل والوعي او الشعور والانسان والالة اذا وجد مثل هذا الكائن البشري الالي . . اذ ان هذا الفرض التصوري سوف يلقي ضوء باهرا على معنى هذه المفاهيم وطبيعة عملها الان :

وقبل ان يمضي ميلز في عرض الاجابات المختلفة على هذه المشكلة ونقد هذه الاجابات وتقديم الحل او النظرية التي يقترحها ، كان حريصا على ان يستبعد امرين حتى يحكم امر المشكلة الفرضية التي يفرضها بحيث يوجد التشابه التام بين الانسان والكائن البشري الالي الذي يفترضه مما يساعد على ايجاد تفرقة حاسمة واضحة جوهرية بين الانسان والالة . فأولا . قد لا يكون في مقدورنا ان نميز بين الكائن الذي امامنا هل هو انسان او الة ولكن يمكننا ان ندرس تاريخه فنعرف هل ظهر الى الوجود صناعيا ام بطريق التوالد الانساني العادي فنسمي الاول آلة والثاني انسانا، ولكن لنتجاهل الان هذا المقياس من مقاييس التفرقة ولنصرف النظر عن الاعتبار بتاريخ الكائن الماضي .

وثانيا . هناك معيار اخر للتفرقة الا وهو « النمو » فالناس ينمون بينما الالات تصنع ، وحتى اذا فرضنا ان الالة قد تتبدى لنا منها علامة النمو التي نراها على الانسان العادي، الا ان هذا النمو ليس هو مراحل النمو المعروفة لنا ، النمو من « المهد الى اللحد » . الا اننا لكي نذهب مع افتراضنا الى نهايته دعنا نفترض ان هذا الكائن البشري الالي تزوج بامرأة عادية وانجب منها طفلا ونما هذا الطفل كما ينمو غيره من الاطفال ولنشر الى هذا النوع من الاطفال على انه « الجيل الثاني من الكائن البشري الالي » .

ـ والان يمكننا ان نصوغ هذه المشكلة على النحو التالي « على اي اساس يمكننا ان نقرر ـ دون ان ننظر الى الماضي او الاسلاف ـ ما اذا كان الجيل الثاني من الكائن البشري الالي انسانا او الة » اي هل في مقدورنا ان نفرق بين الانسان الحقيقي وبين الجيل الثاني من هذا الكائن البشري الالي الذي يشبه الانسان تمام الشبه حتى في مراحل النمو ؟؟

تلك هي المشكلة كما يعرفها ميلز ويرى ان في مقدورنا ان نفرق بين الاثنين ، ولذا فهو يعتقد ان هناك فرقا دائما بين الانسان والالة ، فرقا عميقا بالرغم مما قد يكون هناك من تشابه تام بين الاثنين سواء في التكوين الفيزيقي والكميائي ومظاهر السلوك المختلفة وسيظل هذا الفرق قائما مهما يفعل مهرة المهندسين في المستقبل .

اذا سألنا ما الفرق بين الانسان والالة ؟؟ كان الرد السريع التقليدي الذي يتبادر الى الاذهان هو ان للناس عقولا ووعيا بعكس الالات وايا ما كانت الالة التي نبتكرها معقدة فهي ليس لديها وعي او شعور او عقل .

ـ واحسبك مطمئنا الى هذه الاجابة كل الاطمئنان ولكن دعنا ننظر فيها لنرى هل هي اجابة يمكن الاستناد اليها حين نريد تفرقة بين الالة والانسان .

انك حين تقول ان « للانسان عقلا » توهم نفسك وتوهمنا معك ان هذه العبارة مساوية لقولك ان « للانسان سيارة او قيثارة » ولكن كلمة سيارة او قيثارة تشيران الى اشياء ملموسة في عالم الواقع . . . فهل كلمة عقل تشير الى مثل هذا النوع من الاشياء ؟؟ ستقول حتما لا فهي تشير الى شيء غير مادي خفي مستتر . وهنا مكمن الخطر فليس لدينا من وسيلة لنكشف بها عن هذا الكائن اللامادي الخفي لنعرف هل هو موجود اولا ، وانت بذلك انما تضع امامنا فرضا لا يمكن تحقيقه ، وكأنك تفترض ان العقل بمثابة شبح يسكن البدن او انه كما يسميه جلبرت رايل ساخرا (١) « شبح في الالة Gohst in the Machine وهذا الشبح لا يسرى ولا يحس ولا وزن له ولا طعم ولا رائحة ، ليس لدينا من وسيلة تجريبية نعرفه بها ومثل هذا الفرض فرض لا يمكن تحقيق صدقه من كذبه ـ فرض غير قابل للتحقيق بطبيعته سواء الان او في المستقبل ، فهو فرض لا يقبل التحقيق لانه ليس هناك وسيلة تصلح اداة لمثل هذا التحقيق . وهذا الكائن الذي اسميته العقل وافترضت وجوده سيظل خفيا غير معروف لنا الى الابد ، وهكذا فانت

(1) G. Ryle, Concept of Mind (London, 1949)

ترى انك باجابتك التقليدية هذه وباثباتك هذا الشبح الخفي لن تقدر ان تتخذها مقياسا يصلح للتفرقة بين الانسان والالة لانك قد وضعتنا بذلك امام فرض لا يمكن تحقيقه .

ب ـ ولننتقل الان الى الآخذين بمذهب التحقيق Verificationist لننظر ماذا يكون جوابهم على هذه المسألة :

واشهر الآخذين بمبدأ التحقيق في المعرفة والعلم هم الوضعيون وخاصة المناطقة الوضعيون (٢) وهم ينكرون عليك اذا اردت لكلامك ان يكون ذا معنى ـ ان تقول كلاما لا يمكن رده الى الواقع المشاهد الملموس او تثبت وجودا لاشياء ليس في طوقك ان تتحقق من صدقها او كذبها بالوسائل التجريبية العلمية الموضوعية المشتركة بين الناس. ولعل خيرما يعبر عن موقف اصحاب مذهب التحقيق هو ما يقوله الاستاذ آير « حينما اقرر ان كائنا واعيا او شاعرا فلست اقرر شيئا اكثر من انه يفصح ـ حين استجابته لاي اختيار ممكن تصوره ، عن مظاهر الوعي التجريبية ، ولست بذلك افترض مسلمة ميتافزيقية خاصة بوجود حوادث لا استطيع ملاحظتها حتى من ناحية المبدأ » (٣)

يزعم التحقيقيون هؤلاء انه لا سبيل ـ بعد ان ثلنا ان الكائن البشري الالي يتفق والانسان في السلوك والتركيب الفيزيقي والكيميائي ومختلف الاستجابات ، لا سبيل لنا الى التفرقة بين الانسان وهذا الكائن البشري الالي الا بالرجوع الى الاسلاف ، اما ان هناك شبحا او عقلا او نفسا لا مادية تسكن هذا الجسم ، فهذا كلام فارغ لا معنى له ، وليس امامنا الا استجابات الانسان ندرسها ، وما دمنا قد افترضنا اتفاق الانسان والكائن البشري الالي في هذا فلا سبيل الى التفرقة بينهما .

اذ ما معنى قولك ان « فلانا في حالة وعي » ؟؟ وكيف تعرف ان كان هذا الفرد وذاك في حالة وعي او عدم وعي ؟؟ لا شك ان سبيلك الى معرفة ذلك هو دراسة سلوكه كأن تلاحظ عينيه هل يفتحهما ويغلقهما ، وهل يستجيب حين نخزه او نلمسه ، وهل يأتي بأفعال ذات غرض ... الخ مما يعرفه الجراحون واطباء التخدير ، فكل طبيب من اطباء التخدير لا بد ان يكون قادرا على معرفة علامات الوعي او الشعور هذه والا لما استحق ان يبقى في عمله لحظة واحدة .. فانت ترى اذن ان هذه المعايير السلوكية للتفرقة بين الوعي وغير الوعي مرفوضة اذن كمقياس للتفرقة بين الانسان والكائن البشري الالي لانه بحسب فرضنا في مقدوره ان يقوم بمثل هذه العلامات او المظاهر فلا نستطيع ان نفرق بين الاثنين .

واذا انتقلنا الى ميدان السياسة والحياة العامة فماذا يكون موقفنا مع هذه الكائنات البشرية الالية هل نمنحها حق لانتخاب حين تبلغ الثامنة عشرة !! وهل نأمرها بفعل الخير وتجنب الشر وهل يكون امرا معقولا ان نهددها بنار جهنم ونرغبها في نعيم الجنة ، وهل يكون لها حق التقاضي في المحاكم ... ونحن اذا منحناها هذه الحقوق فانما نحن بذلك قد قررنا ان نسميهم « بشرا » وليسوا « آلات » .

وكذلك اذا فرض وكثرت هذه الكائنات البشرية الالية وكثر نسلها ولم يتهددنا بالخطر ولم تكن عقبة في سبيل التقدم والغينا الاتنا الميكانيكية والالكترونية الموجودة الان.. فلن تكون بنا حاجة حينذاك الى ان نفصل بين كلمتي انسان والة ولا ان نوجد معيارا للتفرقة بين الاثنين .

والان ما وجه الضعف او القوة في هذا الجواب وهذه الحجة التي يقدمها لنا اصحاب مبدأ التحقيق ؟. تكمن قوة هذه الحجة في اصرارها على عدم قبول اي فرض لا يمكن تحقيقه بالوسائل التجريبية اما ضعفها فهو ضعف جميع النظريات النفسية التي تستبدل الوعي او الشعور بالسلوك.

ولنمعن النظر الان فيما تتضمنه هذه النظرية من قصور.

اولا ان مثال طبيب التخدير الذي ذكرناه سابقا والذي يعتد بالعلامات السلوكية كمعيار يفرق به بين حالة الوعي او عدم الوعي لدى مريضه ، هذا المثال يمكن الشك فيه ، فكلنا نعلم ان هناك فرقا بين ملاحظتنا شخصا يظهر « علامات » لالم وبين احساسنا نحن بالالم ، وبالمثل كذلك هناك فرق بين مشاهدتنا شخصا يظهر علامات الوعي وبين ان نكون نحن انفسنا واعين ، والعبارة التي تقول « ان زيدا من الناس يظهر كل علامات الوعي الممكنة ولكنه في الحقيقة غير واع » هذه العبارة عند التحقيقيين عبارة متناقضة مع نفسها لان قولك « في حالة وعي » مساو لقولك « يظهر كل علامات الوعي » ولكن في واقع الامر ليس هناك من تناقض في هذه العبارة وهي ليست كقولك « ان هذا الشيء يسلك ويعمل كما يعمل لتليفون بالضبط ولكنه في الحقيقة ليس تليفونا » فهذه العبارة متناقضة مع نفسها حقيقة ، اما عبارتنا الاولى فليست على هذا النحو من التناقض .

ثانيا : تحذرنا النظرية التحقيقية من ان نفرق بين الانسان والالة على اساس ان هناك شبحا او عقلا خفيا نفترض وجوده في الانسان ومع هذا فان هذه النظرية لم توضح لنا كيف وجدت هذه الفكرة التي تقول بالشبح في الالة ولا يمكننا ان نفهم كيف وجدت هذه الفكرة مالم يكن في خبرتنا « شيء ما » اوحى بهذه الفكرة .

وسيبين ميلز فيما يلي ان هذه الفكرة « فكرة الشبح في الآلة » ليست بالفكرة المستهجنة : او الغلطة الفاحشة والخطأ الجسيم كما يريدنا رايل بنقده اللاذع لهذه الفكرة ان نعتقد .

والان فان المطلوب هو نظرية تتفادى كل هذه الصعوبات التي يثيرها جواب التحقيقيين وترد على الاعتراض الذي يوجه الى الجواب التقليدي الذي يفترض فرضا غير ممكن

ـ التتمة على الصفحة ٧٠ ـ

(٢)ـعندنا في اللغة العربية لاول مرة عرض واضح دقيق امين للمذهب الوضعي المنطقي في بعض مؤلفات الدكتور زكي نجيب محمود وخاصة في كتابيه « المنطق الوضعي » و « خرافة الميتافيزيقا »

(٣)ـمن كتاب آير «اللغة والصدق والمنطق» ـ الطبعة الثانية ١٠٤٩ ص١٣٠

معنى الانسان والآلة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٠ ـ

التحقيق وهنا يقدم ميلز اقتراحه لحل هذه المشكلة ويقيم فكرته على اساس من مفهوم المخطط التصوري للجسم او رسمة الجسم .

ح ـ والان ما هو هذا المفهوم

ان مفهوم مخطط الجسم او رسمة ـ الجسم (١) مفهوم دخل علم النفس وعلم دراسة الاعصاب حديثا ، واول من ادخله هو العلامة النيورولوجي هيد (٢) ، وقد استخدمه كتفسير لادراكنا التغيرات التي تحدث في اوضاع اطرافنا واوضاع اجزاء الجسم بعضها الى بعض، وقد استخدمه علماء اخرون في تقديم نظرية جديدة لتفسير الذاكرة .. وقد اشار هيد ويزدم الى علاقة هذا المفهوم بالظاهرة المعروفة وهي ظاهرة الاطراف التوهمية Phantom - limbo ، فما هي هذه الظاهرة ؟!

١ ـ تشاهد هذه الظاهرة في بعض المرضى الذين تبتر بعض اطرافهم ، فهم يشعرون احيانا بالم ووخز في ساقهم التي بترت مثلا فهذه الساق المبتورة لم تختف تماما من صورة الجسم التي في اذهانهم ، بل هم ما يزالون يحسون بهذه الساق التي لم يعد لها وجود في الواقع ولكنها موجودة وجودا توهميا .

والاراء مختلفة حول مفهوم الرسمة او المخطط التصوري، والذي يعنينا هو ان نوضح كيف نريد ان يفهم هذا المفهوم، ويهتم ميلز في بحثه هذا بمسألتين ، بالنتائج المرضية الاكلينيكية المفصلة بالموضوع وبمسألة الوعي او شعورنا بأنفسنا .

فأما عن النتائج المرضية غير السوية ، فهناك ظاهرتان: هما ظاهرة الاطراف الوهمية التي اشرنا اليها ، والظاهرة الاخرى هي عجز بعض المرضى الذين اصيبوا بعطب في قشرتهم المخية عن ادراك وتحديد المكان الذي قد يلمسون فيه من اجسامهم .

وما الصلة بين هاتين الظاهرتين وبين مفهوم المخطط التصوري للجسم او رسمة الجسم ؟؟

يبدو لنا ان المخ يحتوي على تمثيل او تصوير رمزي لبناء الجسم ، اي ان فيه صورة لبناء الجسم واطاره ففي مقدور الاشخاص العاديين ان يحسوا بان لمسنا او وخزنا في اصبع معين آت من هذا الاصبع بالذات ، اي انه يوجد في القشرة المخية او اللحاء بناء او تكوين معين يسمح لنا بالمقارنة بين الاجزاء المختلفة للجسم ، واذا فرض وحدث عطب او اصابة في القشرة المخية فان القدرة على عمل هذه المقارنة تتلاشى او تضعف فلا يشعر الشخص بلمسنا له في هذا المكان المعين من جسمه ، وايضا اذا كان المخ سليما لم يصبه اي عطب او تلف ، وكان احد الاطراف قد بتر فان شروط الشعور او الوعي بهذا الطرف ما تزال قائمة في المخ وبذلك يشعر الشخص بهذا الطرف التوهمي .

وقد اعطانا هيد صورة لحالة مريض اجتمعت فيه هاتان الظاهرتان معا فهو يقول « كان احد مرضانا قد فقد ساقه اليسرى قبل ان يصاب بتلف مخي افقده القدرة على معرفة وضع اجزاء جسمه ، وقد كان يحس بعد بتر ساقه فيما سبق ـ كما هو الحال في الحالات المماثلة ـ بحركات في قدم وساق توهمية ، ولكن حين حدثت هذه الاصابة المخية توقفت كل هذه الحركات مباشرة ، فالاصابة التي ازالت لديه كل معرفة باوضاع جسمه افقدته كذلك في نفس الوقت الشعور بالساق التوهمية » فبنية اللحاء المخي او تكوينه هي التي تفسر لنا هاتين الظاهرتين .

ويرى ميلز انه يجب استخدام كلمة رسمة او مخطط لنشير بها الى ما يمكن تسميته « بالنظر الفينومولوجي لهذا الجسم »(١)، وهذا النظير الذي يسميه ويزدم بالجسم التوهمي Phantom - body حيث قد توسع ويزدم في فكرة « الطرف التوهمي » ومد مفهومها وافترض وجود جسم توهمي وهو عبارة عن « امتلاء شبحي يشغل حيز الجسم الفسيولوجي » .

فهنا جسمنا العادي الفسيولوجي الذي يدرسه علم وظائف الاعضاء ، وهناك النظير الفينومولوجي او الظاهري لجسمنا العادي « ولا تعني كلمة فينومولوجيا اكثر من الطريقة التي تظهر فيها الاشياء » ويقرر ميلز ان هذه الفكرة اي فكرة النظير الظاهري او الجسم التوهمي المقابل لجسمنا العادي فكرة مشروعه وواقعية نحسها وندركها ادراكا مباشرا!

٢ ـ ولكن كل ما سقناه حتى الان كان امثلة مرضية ، ولم نتحدث عن مسألة الوعي او الشعور العادي او السوى غير المرضى ... ولكن الا ترى معنا ان هذه الامثلة المرضية تكشف لنا عما هو الشعور والوعي السوى بمخطط اجسامنا وكيف يكون هذا المخطط التصوري ؟؟ ولنوضح الان ما احب ان نفهمه عن المخطط الجسمي فيما يتصل بالوعي او الشعور بالذات .

كتب جون ويزدم يقول « ان الضمير « انا » او « نحن » الذي يدل على الشخص ، يشير في بعض الاحيان الى الجسم التوهمي ... فهل يمكننا اذن ان نسوي بين الجسم ـ التوهمي وبين العقل بدلا من ان نسوي بينه وبين الشخص » ، فكأن الدكتور ويزدم يريد ان يقول ان العقل هو عبارة عن الجسم التوهمي الذي نعى وجوده ، وان كان

(١) ـ رأينا ان نترجم هذا المصطلح Body - Schema بمخطط ـ الجسم ـ او رسمة ـ الجسم ، وليكن مفهوما ان هذه الرسمة او هذا المخطط تصور ذهني او اطار تصوري ، وهي بمثابة تخطيط او خريطة تصورية للجسم ، ويعرف احيانا هذا المصطلح باسم صورة الجسم Body image فلدينا جميعا صورة ذهنية عن اجسامنا او رسمة لاجسامنا .

(2) H. Head, Studies in Neurology, 1920

(1) Phenomenlogical Counterpart of this body

ويزدم كما يقول ميلز لم يسر مع هذه الفكرة حتى نهايتها الا ان بعض الكتاب والمفكرين الاخرين قد قالوا بمـــا يشابهها وما يتفق معها ، فالفيلسوف الانجليزي باركلي يتحدث بنفس اللهجة تقريبا فهو يقول « العقل او النفس او الروح او انا ذاتي Myself »وكذلك اشار سكوت الى وجود ارتباط واتصال بين مخطط الجسم او رسمة الجسم وبين الانا او الذات .

ولعل هذه النقطة تتضح اكثر اذا تأملنا حدود او نطاق مخطط الجسم هذا او رسمته ومدى وعينا وانتباهنا لحدود هذا المخطط واطاره (١) فالطفل الصغير لا يحس بعـــد بجلده كحد فاصل بين الحقيقة الداخلية والحقيقة الخارجية ولا يميز بين جسمه وبين ما يحيط به من اشياء ولا يميز كذلك بين اجزاء جسمه (٢) ثم يدرج نحو اكتمال ادراكه لذاته وانيته واناه الجسمي ويفرق بين حدود ذاته وجسمه والعالم الخارجي ، او يعرف ما هو باطن بالنسبة لاحساسه وما هو ظاهر خارجي عن ذاته وجسمه ، ويعي مخطـط جسمه ورسمته ..

وقد ذكر رتيش موضحا هذه النقطة فقال « حين انظر الى شيء ما فان الشيء الذي اراه يكون خارج جسمي ... اما الالم الذي اشعر به من دمل في قدمي فهو الم باطني داخل جسمي ، اما ما يمكن ان اراه على قدمي او المسه باصبعي فليس هو بالشيء الخارجي تماما عن جسمي ولكنه السطح الخارجي له »

(١) نستطيع ان نزيد على ما أشار اليه ميلز ابحـاث فيشر وكليـف لاند الخاصة بدراسة العلاقة بين صورة الجسم وبين اساليب الحياة ، فالناس يختلفون في تصورهم لمخططات اجسامهم من الناحية النفسية ، فهم يتصورون سطوح اجسامهم تصورا مختلفا من حيث قيام هذه السطوح كانها حاجز او مانع سميك صلب لا يخترق بسهولة ، وبعضهم ينظر اليها كحاجز رقيق واهن سهل الاختراق ، وقد تمكن علماء النفس من قيـاس هذه التصورات التوهمية الخاصة بصورة الجسد في اذهان مختلف الافراد عن طريق استخدام اختبارات رور شاخ او اختبارات بقع الحبر والصور الغامضة ، ووضع لذلك مقياسان الاول لقياس « درجة المانع او الحاجز » وهو عبارة عن مجموع الاستجابات التي يكون فيهاتأكيد على السمـــك والصلابة والسطوح ذات الاغطية غير العادية كأن يدرك الشخص في بقع الحبر او الاشكال الغامضة المعروضة عليه مدركات مثل « كهف ذو حوائط صخرية » « مومياء محنطة ملفوفة » انسان شاكي السلاح « شخص يلبس درعا .» والمقياس الثاني لقياس « درجة اختراق الحدود » وهو عبارة عن مجموع الاستجابات التي يكون فيها تأكيد على السطح الخارجي كشيء هش سهل الاختراق او التكسر كأن يدرك فيها « رصاصة تخترق جسـد انسان » و « فراشة ذات اجنحة مهلهلة » و « دجاجة منتوفة الريش » .

وقد تبين من هذه الدراسات ان الافراد الذين يؤكدون على سـطوح اجسامهم كشيء صلب او حاجز سميك مسلح يكونون عادة اكثر طموحا ورغبة في المنافسة من الاشخاص الذين يتصورون صورة اجسامهم فـي صورة غير محدودة واقل تماسكا .

وهذا بحث نرجو ان نعرض له بشيء من التفصيل في مقال آخر.

(٢) ـ انظر « مباديء علم النفس العام » للدكتور يوسف مراد الفصـل الخامس عشر موضوع مراحل تكوين الانية .

وقد ذكر رايل في كتابه صفحة ١٨٩ هذين المثالـين اللذين نقولهما في حديثنا العادي « لم تحرقني النار انما حرقت شعري » و « اصطدمت بعمود في الطريق » فيظهر من هذين المثالين كأن المتحدث في الجملة الاولى لا يعتبر شعره جزءا من مخطط ـ جسمه ، وفي الثانية يبـــدو وكأن مخطط جسمه قد امتد واتسع حتى شمل حدود السيارة التي يقودها ، واحيانا يمتد هذا المخطط الجسمي اكثر فيشمل المجال الذي نحس اننا نسيطر عليه تمـام السيطرة ، فمضرب كرة الطاولة مثلا لدى اللاعب المتمكن يقال عنه أنه جزء منه .

٣ ـ والان بعد ان تحدثنا عما نحب ان يفهم من كلمـة مخطط او رسمه فيحسن بنا ان نتحدث عما تعنيه بما هو خارجي وما هو داخلي ، وهناك استعمال صريح لهاتـين الكلمتين كأن تقول حظيرة داخلية او حظيرة خارجية ـ فانت تعني بذلك حظيرة داخل الدار او خارج الدار ، كذلك تعني نفس الشيء حين نقول ان هناك عضلات « في » ساقي او عمليات تجري « في » مخي ، فهذه الاشياء أو العمليات التي نقول عنها انها داخلية او خارجية اشياء ملموسة يمكن رؤيتها ولمسها وهذا النوع من الداخلي او الخارجي نوع يخضع للقياس وهذا النوع الذي يخضع للقياس يمكـن تسميته بالخارجي او الداخلي من حيث « الابعـــاد » dimension. الا ان الاشياء ليست خارجية او داخليةمن حيثهي ابعاد، فاننا نتحدث احيانا فنقول«العالم الخارجي » « والحقيقة الخارجية » ونعني بذلك ان الشيء خارجي « بالنسبة لي » اي هو « خارجي من ناحية أخرى هي ناحية المخطط اي خارجي بالنسبة الى مخطط الجسم او رسمته » .

فها هنا نوعان مما هو خارجي ، ما هو خارجي من حيث الابعاد وما هو خارجي من حيث المخطط ، والاول ملموس صلب مرئي والثاني كذلك ، أما ما هو داخلي فليس علـى هذا النمو ، اذ هناك ما هو داخلي من حيث الابعاد مثـل العضلة في ساقي وهي مرئية ملموسة وما هو داخلي من حيـث المخطط او الرسمه اي مخطط الجسم مثـل الالام والاوجاع والدغدغات والصور العقليةوالمشاعر والاحساسات والانفعالات التي نعدها جزءا من « حياتنا الداخلية » ، وفي هذه الحالة لا نستطيع ان نقول ان هذه الاشياء مرئية او ملموسة أو صلبة ولا معنى لان نقول ذلك ، وعلى كل حال فهي ليست مرئية كما نرى الموائد والكراسي والاشجار ، وكذلك فهي لا تخضع للقياس او التقدير الكمي الدقيـق وان كان هناك شبه تقدير كمي فليس عندنا وسيلة او مسطرة نقيس بها مثل هذا التقدير .

وهكذا فبينما العضلة تعتبر داخلية في ساقي من ناحية الابعاد الا ان الالم في قدمي داخلي من حيث المخطط اي من حيث الصورة واطار جسمنا التوهمي .

ولكن الا ترى انه يمكن ان يعترض علينا بان افتراضنا وجود مخطط او رسمة للجسم ، ثم قولنا بان هناك احساسا مخططيا مما هو خارجي او داخلي ، فكأننا بذلك نقول ان

الالم غير موجود في قدمي او ساقي الحقيقية بل هو موجود في ساق متوهمة غير حقيقية او في جسم توهمي، وبذلك فاننا لم نجد للالم مكانا في اجسامنا الحقيقية افترضنا ببساطة وجود ساق « توهمية » او جسم «توهمي» غير حقيقي استعماري تصوري لكي نؤوي ونسكن الالم فيه .

وهذا الاعتراض ليس بالاعتراض الهين ، فهو يثير مشاكل معقدة خاصة بقواعد استخدام كلمات مثل«حقيقي» و« واقعي » و «موجود » ، وياترى هل جسمنا الفسيولوجي العادي او جسمنا التوهمي هو الجسم الحقيقي !! كل هذه مشاكل لا سبيل الى تناولها ولذا نرى ميلز يسرع ويوافق على اننا في الحقيقة لا نمتلك « جسمين » لكل منهما نوعه الخاص بل ولا نمتلك حتى شيئين متميزين هما العقل والجسم ، ويوافق على استبدال التعبير « اننا واعون او شاعرون بجسم توهمي » بالتعبير « اننا واعون او شاعرون « توهميا » بجسم عادي ، اذا كان مثل هذا التغيير سيخلصنا من ان نسأل بعض الاسئلة المستحيلة الخاصة بالحالة الانتولوجية المتعلقة بوجود الاطياف والاشباح .

ان كل ما يعنينا فيما يتصل بمشكلتنا هو ان نميز بين نوعين من الاحساسات فيما يتعلق بما هو خارجي او داخلي ــ وهما الاحساس بالخارجي او الداخلي من ناحية الابعاد والاحساس بهما كذلك من حيث المخطط او الرسمة، وان نقرر أن الاحساس من حيث المخطط يتضمن علاقة وثيقة بما نحسب ونعتقد انه انفسنا .

٤ ــ والان نستطيع ان نجيب على سؤالنا ونفرق بين الانسان والالة .

فالنظرة التقليدية التي تقرر أن للانسان عقلا او وعيا او شعورا او نفسا ليست بالنظرة المخطئة كل الخطأ بعد كل هذا ، اذ ان معنى ذلك حسب وجهة النظر التي نقررها الان يقرب من ان يكون مثل قولنا ان الانسان ــ على عكس الآلة ــ لديه وعي او شعور بالنسبة الى مخطط جسمه ، وبمعنى اخر يستطيع الانسان ان يعرف الآلام والاوجاع والدغدغات كشيء داخلي ويستطيع ان يميزها عن الاشياء الخارجية التي يراها كالاشجار والموائد والكراسي والمنازل .

فيا ترى هل يمتلك الجيل الثاني من الآلات البشرية مثل هذا الوعي ؟؟ نحن لا ندري ، ولكن الذي ندريه تماما انه « اذا » امتلك مثل هذا الوعي او الشعور فهو انسان وليس آلة لان امتلاكه مثل هذا الشعور كفيل بأن نطرح القول بأنه آلة .

٥ ــ يبقى امامنا الان ان نبين كيف ترد هذه النظرية على الاعتراضات التي اثرناها على وجهتي النظر التقليدية والتحقيقية .

اولا ــ قلنا ان التحقيقيين يجعلوننا نقرر ان عبارة كهذه « فلان يظهر جميع علامات الوعي الممكنة ولكنه ليس واعيا في الحقيقة » ، يجعلوننا نقرر ان هذه العبارة عبارة متناقضة مع نفسها بينما هي ليست متناقضة ، ومثل هذا الاشكال يصبح يسيرا ، فنحن اذا قصدنا بكوننا «واعين او شاعرين » ان لدينا وعيا بالنسبة الى مخطط الجسم فليس هناك من اشكال اذ ان هناك فرقا بين اظهار « علامات » الوعي وبين امتلاك هذا الوعي حقيقة ، وبحسب فرضنا يظهر الكائن البشري الالي جميع علامات الوعي الممكنة ولكن ذلك لا يقتضي حتما انه هو ذاته واع او شاعر بالفعل .

ثانيا ــ اعترضنا كذلك على التحقيقيين بانهم لم يفسروا لنا كيف وجدت لفتنا في الحديث عن فكرة « الشبح في الالة » .

ويسرع ميلز فيقرر الموافقة على رفض الاعتقاد بان هناك شبحا موجودا في الآلة من حيث الابعاد ، فمثل هذا الاعتقاد او الظن وهم خاطيء مضلل لان من شأن الحديث على هذا النحو ان يوهمنا بان الشبح والالة حالتان وجوديتان يمكن مقارنتهما بمعنى انهما جزءان من المادة التي صنع منها العالم مما سيوقعنا في حيرة واضطراب .... ولكن مع كل هذا فان عبارة « شبح في الالة » تفقد كل ما فيها مما قد يبعث على السخرية والتهكم والغرابة اذا نظرنا اليها من حيث الوجود الداخلي المتصل بالمخطط او الرسمة وليس من حيث الابعاد ، فالداخلية هنا داخلية مخططية وليست داخلية ابعاد ومن ثم فان كانت فكرتنا عن مخطط الجسم او رسمته او عن « الجسم التوهمي » فكرة صحيحة ومفيدة فلا يعد الكلام بلغة « الشبح في الآلة » كلاما مستهجنا وضلالا عجيبا كما يريد رايل ان يقول .

ثالثا ــ اعترضنا على النظرية التقليدية بأنها تفترض وجود فرض لا يمكن التحقق منه فهل يا ترى يمكن ان ينسحب هذا الاعتراض على نظريتنا كذلك فيقال ان افتراضنا وجود وعي بالنسبة الى مخطط الجسم هو افتراض يصور وعي مجهول خفي لا يمكن ان نكتشف وجوده او عدم وجوده .

دعنا ننظر الى هذا الاعتراض بشيء من التفصيل .

صيغ هذا الاعتراض في اشكال مختلفة ، فطبقا لاصحاب التعريفات الاجرائية يكون قولنا « ان فلانا لديه وعي بالنسبة لمخطط جسمه » قولا مرفوضا لانه يتضمن جملة كلمات لا يمكننا ان نحددها او نعرفها تعريفا اجرائيا اذ ليس هناك بيان بانواع العمليات التي يجب ان نقوم بها لنعرف اذا ما كانت هذه الجملة صحيحة او خاطئة .... وكذلك هذا القول مرفوض لانه يحتوي على كلمات لا يمكن ان تتخذ قيمة « فورية الدفع » في نطاق ما نلاحظه من حوادث ملموسة .... وهذا القول مرفوض كذلك بحسب مبدا التحقيق التجريبي لدى المناطقة الوضعيين .

فكيف اذن نواجه هذا الاعتراض ؟

يمكن مواجهة ذلك بان نعرف ماذا يراد بالضبط ، فاذا سأل احد الناس مثلا « كيف اعرف صدق قولك ان فلانا من الناس لديه وعي بالنسبة لمخطط الجسم ؟؟ » ــ فهذا سؤال معقول وميسور ان كان السائل يطلب مقياسا خارجيا من حيث المخطط بالنسبة لاي ملاحظ او مشاهد اخر ، اذ اننا نستطيع ان نعرف بواسطة مقياس خارجي ما اذا كان هذا الشخص او ذاك لديه وعي او شعور سوي

عادي بمخطط جسمه ، فنحن على حق حين نفترض ان الاطفال الصغار جدا وبعض المرضى العقليين لا يمتلكون مثل هذا الوعي ، وكذلك حين نجد شخصا لا يظهر من علامات الالم حين يفقد اصبعه اكثر مما يظهر حين يقطع شعره فاننا نشك بكل تأكيد ان هناك شيئا شاذا فيما يتصل بتصوره لمخطط جسمه ، ولعل اضطرابا من هذا النوع هو الذي يجعل بعض الافراد يكونون اكثر عرضة للحوادث من غيرهم فتراهم كثيرا ما تقع لهم الحوادث فيصيبون اصابعهم في الآلات مثلا .

وهكذا فانت ترى ان المقياس الخارجي لا يمكن ان يزودنا على احسن الحالات الا « بعلامات » على الشعور وليس « بعينات » منه ، شأن ذلك شأن اثار الاقدام على احواض الورد في أرض حديقة البيت فهي عبارة عن « علامات » على وجود لص، اما هذه الاثار نفسها فليست هي «عينات» مما نسميه « سرقة » .

وهكذا فليس في الامر صعوبة اكثر مما في عجزنا عن ان نعرف معرفة أكيدة اذا ما كانت الحيوانات تحس بالالم او اذا ما كان زملاؤنا من البشر يكذبون علينا حين يقولون انهم يشعرون بالم في اسنانهم . فاذا كان السلوك ـ بما فيه السلوك اللفظي ـ مما يوحي بوجود الم في الاسنان وليس هناك ما يدلنا على غير ذلك « فلنا الحق كل الحق » ان نقرر ان هذا الشخص يشعر بالم في اسنانه ، وكذلك اذا ظهر حيوان علامات الالم المختلفة « فلنا الحق كل الحق» ـ اي لدينا كل ما يمكننا من اسباب لان نقول انه في حالة تألم .

وفي كلمة ، اننا اذا طلبنا مقاييس خارجية من الناحية المخططية وجدنا علامات عليها لاعينات منها ، أما اذا رحنا نطلب مقاييس خارجية لما هو داخلي من الناحية المخططية ، ثم اخذنا نندب حظنا لانه لا يظهر لنا على النحو السابق فانما نحن نتاسف حيث لا اسف وقد وضعنا اسفنا في غير موضوعه ، فالعبارة القائلة : « أن فلانا من الناس لديه شعور او وعي بمخطط الجسم » هذه العبارة ليست مما يمكن صرفه من بنك الواقع الملموس ، شأنها شأن من يقول انه يحس الما في اسنانه او ان الحيوانات يمكن ان تحس بالالم فهي كذلك ليست عبارات فورية الدفع ولا يمكن صرفها من بنك الواقع . والخطأ هنا ليست في هذا الكلام او العبارات وانما هو في نوع هذه القيمة الفورية الدفع التي يتوقعها المعترض من مثل هذه العبارات .

وهكذا فانت ترى ان الاعتراض او الاحتجاج بان فكرتنا عن مخطط الجسم فرض لا يمكن تحقيقه ، اعتراض لا محل له على فكرتنا هذه .

٦ ـ واخيرا ترى هل يمكن صنع آلة لديها وعي بمخطط الجسم ؟؟ .

ان المهندس الذي قد يخترع كائنا بشريا آليا لا بد ان يعرف التفاصيل المتعلقة بوظائف المخ البشري وهذا مستنبط من الفرض نفسه ، ومن غير المعقول او سوف يكون طلبا بلا معنى ان نطلب منه ان يخلق شيئا او آلة او موضوعا يمكن ان يتصل بمخطط الجسم اذ ان اقصى ما يطلب منه ان يضع الظروف التي قدتحدث في ظلالهامثل هذه المقدرة .

وثانيا : اذا طالبناه ان يخلق آلة تحول الاشياء المألوفة مثل الموائد والاشجار ... الى تمثيل وتصوير رمزي لهذه الاشياء في اللحاء المخي فسوف يكون سعيدا جدا في ان يصنع ويتوصل الى هذا ، ولكن ايا ما كانت مهارته وكفايته فسوف يكون تفكيرا مضطربا مختلطا ان نطلب منه ان يصنع آليات او ميكانيزمات مشابهة لتحويل النماذج والانماط التي في اللحاء المخي الى وعي بالنسبة الى مخطط الجسم ، وانها لاستحالة مؤكدة ان يخلق مثل هذا الميكانيزم الذي يعتبر اكبر السمات المحيرة فيما يسمى بمشكلة العقل والجسم ، اذ ان الوعي او الشعور بالنسبة الى مخطط الجسم يبدو انه هو نفسه محتاج الى التفسير من ناحية وليس هناك شيء قط فيما يمكن ان نلاحظه يعطينا هذا النوع من التفسير الذي نطلبه من ناحية اخرى .

وهكذا فان وعي « س » من الناس بالنسبة الى مخطط جسمه لا يمكن ان يكون جزءا خارجيا بالنسبة الى شخص اخر قط ، فمهما يكتشف عالم الاعصاب ومهما يرقي من وسائل ملاحظته « فهو دائما يدرس ما هو خارجي من الناحية المخططية بالنسبة له » فوعي اي شخص آخر بالنسبة الى مخطط الجسم لا يمكن ان يكون قط جزءا مما يكتشفه .

واذا كان ما قلناه صحيحا حتى الان فالزعم اذن بأن هناك « ثغرة او غموضا » تحتاج الى الشرح والتفسير قول خاطىء واما ان نعبر عن املنا اننا قد نكتشف يوما ما في المستقبل المعلومات المطلوبة فكلام لا معنى له اذ ان الثغرات في معلومات عالم الاعصاب يمكن أن تسد وتستكمل باكتشاف الحوادث والاشياء التي هي خارجية فقط من ناحية المخطط .

٧ ـ والان ما خلاصة هذا وماذا كان هدفنا ؟!

كنا نهدف من كل ذلك الى ان نلقي ضوءا على معنى الانسان من حيث توضيحنا لبعض المفاهيم الخاصة به كالعقل والوعي او الشعور ومفهوم الانسان نفسه وماذا يكون معنى هذه المفاهيم وكيف تعمل اذا قدر وضع مثل هذا الكائن البشري الالي . واتضح لنا ان الناس يختلفون عن الالات في امرين اثنين (١) في المظهر والتكوين الفزيائي والسلوك (ب) في ان لهم وعيا او شعورا بالنسبة الى مخطط ـ الجسم ، اي ان من مقدورهم ان يعرفوا اشياء مثل الاحجار والمقاعد والاشجار كاشياء خارجية عن مخطط الجسم وان يعرفوا كذلك الآلام والاوجاع والدغدغات كأمور داخلية .

وغرض ميلز ان يؤكد انه لو فرض وامكن ازالة وتلاشي كل الفوارق المميزة المذكورة في (ا) لو فرض وحدث هذا فان هناك فارقا مميزا اخر هو المذكور في(ب) ، فالناس فقط هم الذين يمكنهم ان يربطوا ادراكاتهم بمخطط الجسم اما في حالة الآلات فليس هناك مخطط جسم يمكن ربط الادراكات به .

القاهرة

عبد الجليل حسن